الفصل السادس

الجيوش الإسلامية في عهد السيطرة الأوروبية

كما أشرنا تحولت معظم الدويلات الإسلامية مع بداية العقد الثالث من القرن التاسع عشر إلي مناطق للنفوذ ، ثم سيطرة مباشرة للدول الأوروبية ، وتلاشت نهائياً هيبة الدولة العثمانية وسيطرتها الفعلية على أجزائها السابقة ، وفي هذا الجو العام المفعم بالأسى والتردي ، وحيث انهارت القيم ، وتبددت العلاقة بين الإسلام والحياة ، ولم يعد يتجاوز الشعيرة والنسك ، كان دور الجيش محل تساؤل ومثار جدل ، فهل يُنتظر من الجيش أن يكون فاعلاً في تلك الظروف ؟ ولمصلحة من تكون تلك الفاعلية ؟ في هذه الجزئية نبحث في وجود الجيش في الدويلات الإسلامية ، وننقب عن دوره ، وعن الخيط الرفيع الذي يربطه بالفكرة الإسلامية من خلال المباحث الثلاثة التالية :

المبحث الأول : الجيوش التي كانت قبل السيطرة الأوروبية .

المبحث الثاني : الجيوش الإسلامية والسيطرة الأوروبية .

المبحث الثالث : الخيط الرفيع بين الجيوش الإسلامية في ظل السيطرة الأجنبية والفكرة الإسلامية .

المبحث الأول

الجيوش التي كانت قبل السيطرة الأوروبية

قبل أن تبسط الدول الأوروبية سيطرتها على الدول الإسلامية بالكامل خلال القرن التاسع عشر والعقدين الأول والثاني من القرن العشرين ، كان ثمة جيوش قائمة ولها دورها الذي تواءم مع طبيعة الظروف الداخلية والإقليمية والدولية آنذاك ، وسنشير في لمحات سريعة إلي تلك الجيوش كما يلي :

أولاً : الجيش التركي :

بالرغم من أن تركيا في شكلها النظامي كدولة بحدودها المتعارف عليها ، لم تخضع للسيطرة الأوروبية المباشرة ، كما حدث للدويلات الإسلامية مثل مصر والشام والعراق وغيرها ، إلا أن الجيش التركي قد تأثر كثيراً بالتطورات التي سبقت تلك السيطرة ، وقد فت في عضده وأوهن من قوته المؤامرات والحروب التي حاكتها له القوى الأوروبية التي كانت قد بدأت هجمتها الثانية ، وخروجها المندفع خارج نطاق القارة العجوز نحو العالم الإسلامي والمناطق الجديدة ، كما أثر على ذلك الجيش كذلك التساقط المتتابع والضياع النهائي للولايات الإسلامية التي كان يعتبرها ضمن نفوذه وسيطرته ، يضاف إلي ما تقدم التخلف الذي حل بالجيش التركي مجتاحاً كافة أجهزته وتجهيزاته واستراتيجياته وتكتيكاته ، ليتحول إلي جيش من الدرجة الثانية .

لقد تعرض الجيش التركي لإهانات متعمدة من القوى الأوروبية ، حتى يستقر لدى الباب العالي أن الجيش التركي لم يعد يمثل ركيزة أساسية في سياسة الإمبراطورية المهترأة ، وتتهاوى بشكل نهائي آخر معاقل الوهم التركي في البحث عن الذات وتضخيمها دون داعٍ .

ثانياً : الجيش المصري :

كان مؤتمر لندن الذي عقد في ١٨٤٠ بمثابة المؤشر النهائي لصعود نجم الجيش المصري وبداية مرحلة النكوص والانحدار . وتحول الجيش المصري بعد ذلك من قوة ذات طموحات إقليمية بل وعالمية إلي قوة محدودة بالحدود الجغرافية التي سيّجته بها القوى الأوروبية في مصر والسودان، ولم يعد يُخشى من مصر على جيرانها في الشام أو في الغرب الأفريقي .

لقد تعرض الجيش المصري لنفس ما تعرضت له الدولة من تطورات وتغييرات كانت جميعها في اتجاه التخلف والتدهور ، حيث لم يكن خلفاء محمد على يتمتعون بنفس حنكة ودهاء سلفهم الذي استغل كافة المواقف والتطورات الداخلية والإقليمية والعالمية لصالحه ولمصلحة نفوذه وطموحاته الشخصية . ولم يكن يعلم أن نفس هذه الظروف والمواقف ستعيده تارة أخرى من حيث بدأ .

منذ منتصف القرن التاسع عشر لم يعد الجيش المصري جيشاً طموحاً وحيوياً . بل انحصر داخل حدود دولته . وانتهت مهامه الخارجية التي كانت قد جعلت منه قوة عالمية مرهوبة الجانب . هزمت الأتراك في معركتين متتاليتين ، وأرهبت فرنسا وإنجلترا المتربصتين ، واللتين بذلتا ما في وسعهما من أجل تثبيط ذلك الجيش وتقليم أظافره خلال العقود الأربعة من القرن التاسع عشر من ١٨٤٠ وحتى ١٨٨٠ . حيث عائثا في السياسية المصرية فسادا خلال تلك الفترة التي انتهت بالاحتلال العسكري في عام ١٨٨٢ م .

بالفعل كانت العقود الأربعة التي أعقبت مؤتمر لندن فترة تحول محورية في تاريخ الجيش المصري الحديث الذي أنشأه محمد على ، فقد عمدت إنجلترا وفرنسا من خلال نفوذهما المتزايد في السياسة المصرية إلي إضعاف الجيش المصري من خلال التدخل المباشر في شئونه، وجعلتا منه مسخاً هزيلاً في عدده وعدته وحتى في هيئته .

والمتأمل للسياسة الإنجليزية والفرنسية ومعهما بقية الدول الأوروبية مثل الروسية والإيطالية يلحظ أنها عمدت إلي إضعاف قوة الجيشين التركي والمصري في آن واحد ، فاستخدمت مع الأول سياسة المحاور والتحالفات والحروب والمؤامرات ، ومع الثاني سياسة التدخل المباشر عن طريق خلفاء محمد علي مرة ، وعن طريق الحيل والألاعيب السياسية مرة أخرى .

ثالثاً : الجيش الإيراني :

في الحيز الأرضي الذي استقر فيه أبناء فارس ، بعد أن حدد الأتراك العثمانيون إقامتهم عقب الصراع المرير والدامي الذي تأجج بينهما ، سعى الصفويون ومن جاء بعدهم إلي إقامة كيان نظامي ، بدت عليه أمارات الدعة التي انعكست على الجهود الكثيفة النظامية والشعبية من أجل إحياء التراث الفارسي الحضاري والثقافي ، ووضع أصول ومعالم الذات الخاصة بالأمة الفارسية ، وكان ذلك في سياق الجهود المبكرة الرامية إلي وضع اللبنات الأولى للتكوينات القومية العنصرية ، التي بدأت في البحث عن ائتلاف مبهم ومبتكر تلتقي فيه كلية الفكرة الإسلامية مع خصوصية النزعة القومية .

وظل الفرس في مجالهم الأرضي يرقبون عن كثب ما يحدث من تطورات وتداعيات إقليمية وعالمية غير عابئين أو مشاركين ، إلا في بعض التطورات المتعلقة بوضع الأشكال النهائية لحدودهم الشمالية مع روسيا وأفغانستان وحتى مع تركيا ، وهذا ما قام به أحد القادة الصفويين ويسمى نادر ، فقد أقر الموقف على كل الحدود ، فانتزع أفغانستان بأكملها من أيدي مغول الهند ، وواصل سيره حتى دلهي في عام ١٧٣٩ ، ثم تحررت أفغانستان من السيطرة الفارسية فور اغتيال نادر في عام ١٧٤٧ ، واستتب الأمر لإيران الفارسية ، وأيضاً لأفغانستان وتبلورت البذور المبكرة للقوميتين الفارسية والأفغانية ، ولم تلبث أن نمت وشبت عن الطوق .

لقد أقام الصفويون جيشاً مكنهم من السيطرة على الأحداث والتطورات التي كانت تمسهم وتمس كيانهم الأرضي والقومي ، وبعد أفول نجم الصفويين في إيران ابتداءً من منتصف القرن الثامن عشر توالت على إيران حكومات مختلفة وأسر حاكمة ، جعلت مهمتها الأساسية الحفاظ على ذلك الكيان الجغرافي ، وما عليه من تكوينات بشرية تجمعها منظومة من المشاعر والطموحات والإرث الثقافي والحضاري ، أطلق له العنان لكي يظهر ويلقي بظلاله في تعبيرات ثقافية وحضارية أقامت مزجاً بين الفكرة الإسلامية في عمومها وشموليتها والخصوصية القومية في تفردها وذاتيتها .

لقد أقام الإيرانيون جيشاً لم تتجاوز مهمته مراقبة حدود الدولة ، والحفاظ على الوضع القائم، وضمان عدم المساس بما اتفقت عليه القوى الأوربية من أوضاع إقليمية تم تشكيلها على أسس اقتصادية وجيوستراتيجية وحتى سياسية جديدة ، ومن ثم فلم تكن إيران بالقوة الفاعلة في أحداث وتطورات المسألة الشرقية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، إلا فيما يتعلق بترتيب بعض الأوضاع في الخليج المشترك بينها وبين العرب ومضيق هرمز وجزره الاستراتيجية .

وابتداء من عام ١٩٠٦ حلت على إيران تغيرات كبرى ، حيث أعلن الدستور وكان أول اجتماع لمجلس الأمة ، ومع نهاية الحرب العالمية الأولى استقرت أوضاع إيران الداخلية والخارجية ، فقد تأكد الاستقلال السياسي للدولة ، وقُبلت عضواً في عصبة الأمم ، وانتهت التدخلات الروسية والهندية ، وتمت الموافقة على إنشاء جيش وطني يتعشى مع الأوضاع المستجدة ، وينهي كذلك فترة حكم أسرة قادجار . وفي عام ١٩٢٦ وفي خضم هذه الأحداث تولى العرش أول ممثل لأسرة آل بهلوي ، الذي قام بتجديدات لعل ما يهمنا منها هو تقوية الجيش الذي طمح في أن يكون الأقوى في منطقة الخليج العربي الفارسي والجزيرة العربية ، ولكن على أسس سياسية ، ولم يكن أبداً على ثوابت ذات نزعة إسلامية .

المبحث الثاني

الجيوش الإسلامية والسيطرة الأوروبية

إن على الجيوش الإسلامية القائمة أن تجد نفسها وجهاً لوجه مع السيطرة الأوروبية . وأخذت تلك المواجهة أشكالاً ثلاثة : الشكل الأول : المواجهة الصريحة والمباشرة بين الجيوش الإسلامية القائمة والدول الأوروبية التي فرضت سيطرتها على الشعوب الإسلامية . الشكل الثاني : تشكيل تنظيمات سرية داخل الجيوش لمواجهة السيطرة الأوروبية ، الشكل الثالث : تشكيل تنظيمات مسلحة للمقاومة وهي التي عرفت بجيوش التحرير ، وسوف نعمد إلي تفصيل هذه الأشكال الثلاثة للمواجهة بين الجيوش الإسلامية والسيطرة الأوروبية ، من خلال ما يلي :

أولاً : المواجهة المباشرة بين الجيوش الإسلامية والسيطرة الأوروبية :

كان الجيش المصري هو الأول وربما الأوحد في الجيوش الإسلامية القائمة الذي واجه الغزو الأوربي لبسط السيطرة بشكل صريح ومباشر عام ١٨٨٢ في التل الكبير بقيادة أحمد عرابي ، لقد تقلد العميد أحمد عرابي في فبراير ١٨٨٢ منصب وزير الحربية ، وخاض عرابي منذ توليه ذلك المنصب صراعاً ذا شقين : شقه الأول مع الجنود الأتراك في الجيش ثم ضد الخديوي وأسرته ، وشقه الثاني مع إنجلترا ، وأثار عرابي الشعب المصري وكذلك الجيش الذي كان تحت إمرته ، وعلى اثر ذلك هاجمت بريطانيا الإسكندرية بالقنابل مما دعا عرابي إلي إعلان الحرب عليها ، ودخلت الجيوش الإنجليزية مصر وضربت الجيش المصري في التل الكبير، وانتهت المواجهة باحتلال مصر ، بعد ذلك خضع الجيش المصري للاحتلال الإنجليزي مثله في ذلك مثل مصر بكاملها ، وكان لا مناص من البحث عن وسائل أخرى للمقاومة والتعبير عن رفض الاحتلال ، وبالرغم من تعدد أشكال ذلك التعبير

التي تمثلت في المقاومة عن طريق قوى سياسية رسمية مثل الأحزاب التي كان باكورتها حزب الوفد بقيادة سعد زغلول ، والمقاومة الشعبية السلمية التي انخرط فيها الشعب المصري بكافة طوائفه وفئاته عبر المظاهرات العارمة ، والمقاومة المسلحة وفصائل الفدائيين ، بالرغم من كل ذلك إلا أن ما يهمنا هو الجيش لأنه محور التحليل وأساسه ، فقد ظهرت التنظيمات السرية في الجيش ، والتي قدّر لها أن تنقلب على نظام الحكم وتصحح الأوضاع ، وتنهي وجود السيطرة الأجنبية ، ومن ثم فإن الجيش في نهاية المطاف كان له القول الفصل في إنهاء الأحداث لصالحه .

ثانياً : ظهور تنظيمات المقاومة المسلحة [الفدائيين] جيوش التحرير :

حديثنا الآن عن مقتربات من الجيوش ، فهي ليست جيوشاً بمعناها المتعارف عليه والدقيق ، ولكنها اكتسبت التنظيم والقوة المسلحة والهدف الذي وضعها في موضع قريب من الجيش تلك كانت تنظيمات المقاومة المسلحة ، والذي سماها البعض الفدائيين ، وسمّاها آخرون جيوش التحرير ، هذه التنظيمات المسلحة ذات التسميات المتعددة والشكل والهدف الواحد ظهرت كردة فعل عنيفة وقوية على رفض الشعوب الإسلامية للسيطرة الأوروبية ، ونثير هنا سؤالاً ربما يحرك ذهن القارئ ويستنفر فضوله ، وهو لماذا لم تُقابل السيطرة العثمانية على أجزاء العالم الإسلامي بثورات عارمة لا تهدأ ومقاومات مسلحة مثلما حدث مع السيطرة الأوروبية ؟! هل سبب ذلك تخلف الوعي والإدراك لدى الشعوب الإسلامية في حالة العثمانيين عنه في حالة الأوروبيين ، أم أن ذلك يكمن في الإسلام ، لنفكر ! ! .

على أية حال لقد تبلورت سريعاً تنظيمات المقاومة المسلحة أو جيوش التحرير ، وهي تختلف في طبيعتها عن الثورات الشعبية التي تشتعل كردود أفعال لتصرفات استفزازية من

الدول المسيطرة ، أما الأولى فهي تنظيمات شبيهة إلى حد كبير بالجيوش ، فتتسم بالثبات والتنظيم والهدف الواضح المحدد في رفض الاحتلال والمطالبة برحيله ، وهذه التنظيمات تظهر مستقلة عن الجيوش النظامية التي كانت موجودة وقائمة قبل الاحتلال ، ولا علاقة لها كذلك بالتنظيمات السرية التي تتشكل داخل تلك الجيوش والتي سنتناولها بعد قليل .

لقد رأينا ذلك بوضوح في الجزائر بقيادة عبد القادر الثوري الشهير ثم بقيادة المقراني ، وهناك جيش التحرير الذي قاده بومامة في جنوب وهران ، وفي تونس حيث ظهر تنظيم للمقاومة المسلحة التونسية عقب توقيع معاهدة باردو في ١٢ مايو ١٨٨١ م ، وفي المغرب كان عبد الكريم الخطابي يقود تنظيماً قوياً يتحرك ضد الفرنسيين ، وفي ليبيا تصدت التنظيمات المسلحة للغزو الإيطالي بقوة وشراسة وقاد عمر المختار ملحمة شهيرة في هذا السياق . وفي مصر كان الأمر مختلفاً فقد تبلورت جماعات وخلايا سرية [عرفت بالفدائيين] كانت أقل وضوحاً وأبسط من أن يطلق عليها جيش تحرير ، ولكنها كانت ذات دلالة على عدم استسلام الشعب ورفض الاحتلال . وفي سوريا كان استشهاد يوسف العظمة في ميسلون بداية تحرك شعبي ثوري في وجه الفرنسيين تبلور في تنظيم للمقاومة باشر انطلاقته من جبل الدروز ، وفي العراق شهد يوم ٣٠ يونيو عام ١٩٢٠ ثورة عارمة ضد إنجلترا تشكلت على أثرها تنظيمات مسلحة للمقاومة ، وفي شبه الجزيرة العربية سقط الشريف حسين عام ١٩٢٤ الذي كان يحميه الإنجليز ويحمل لقب شريف مكة ، وذلك في مواجهة إسلام الوهابيين الصارم ، وأسس الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود مملكة نجد والحجاز .

لقد كان الإسلام وراء كافة النماذج والأشكال التي قدمناها للمقاومة المسلحة والتصدي للسيطرة الأوروبية ، كان وراءها إما بشكل واضح وصريح ، كما في ثورات الحركات

الوهابية في الجزيرة العربية والسنوسية في شمال أفريقيا ، أو بإلقاء ظله على تطلعات وتوجهات جديدة كانت هي عينها الوطنية القومية في مرحلة التجدد والتبلور ، منذ ذلك الحين تشكلت الحركات الإسلامية في توجهات عقائدية ذات أبعاد فكرية ، بينما تركت الدور الأساسي للجماعات السياسية ولزعمائها الذين نشأوا على الطريقة الأوروبية .

وعندئذ انبثقت الحركات السياسية من طبقات اجتماعية جديدة مثل الموظفين الإداريين في الصناعة والبنوك ، والموظفون في دوائر الدولة ، والمثقفون وأصحاب المهن الحرة ، وقد تكون من هؤلاء الأحزاب السياسية التي ظهرت آنذاك مثل حزب الدستور الذي ولد في تونس في عام ١٩٢٠ ، وحزب الوفد المصري الذي تكون عام ١٩١٨ ، وشرعت هذه القوى تباشر دورها في النضال ضد الاحتلال الأوروبي .

ثالثاً : ظهور التنظيمات السرية داخل الجيوش :

ننتقل إلي الشكل الثالث من أشكال التصدي المسلح من قبل الشعوب الإسلامية للسيطرة الأوروبية ، وتمثل في التنظيمات السرية داخل الجيوش النظامية التي خضعت لتلك السيطرة ، وقد عرفت هذه التنظيمات طريقها إلي الجيوش المصرية والعراقية والسورية والليبية ، وقد كان هناك اتجاه عام إسلامي يغذي وجود واستمرار هذه التنظيمات ، ويقوى عزمها على تحقيق طموحاتها ، ولكن الهدفين الوطني ثم القومي كانا هما الطاغيان الباديان للمحلل ، وتمكنت هذه التنظيمات من تحقيق ما رمت إليه من التحرر من السيطرة الأجنبية والتخلص من الأنظمة الموالية لها والمتواطئة معها .

المبحث الثالث

الخيط الرفيع بين الجيوش الإسلامية

في ظل السيطرة الأجنبية والفكرة الإسلامية

باستقراء هذه المحصلة القاسية من تاريخ العالم الإسلامي ، ومحاولة التقاط ما يتعلق منها بالجيوش الإسلامية ودورها كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية ، يمكننا أن نقف على جملة من الحقائق نرصدها فيما يلي :

أولاً : بالرغم من صعوبة التلاقي بين أجزاء الدولة الإسلامية وتقطيع أوصالها بشكل قاسي ، إلا أن الرابطة الإسلامية بما كانت تعنيه من أداة الخلاص من ذلك التردي ظلت هي الرباط الوثيق الجامع والمغذي لكافة التحركات التي خاضتها الجيوش الإسلامية بكافة أشكالها ، والتي حددت الغاية والهدف في التحرر من السيطرة الأجنبية ، ولو أن غاية الوحدة الإسلامية كانت هدفاً يبدو بعيد المنال .

ثانياً : لم يقدم الطرح الإسلامي المعاصر لتلك الآونة أدوات الحركة بشكل فعّال وواقعي وسط التغييرات الصاخبة التي أحدثها التدخل الأجنبي في البنية الاجتماعية والفكرية للمجتمعات الإسلامية ، التي بدا أنها مُقْدِمة على تغييرات غامضة ومجهولة العواقب

ثالثاً : لقد أوكلت مهمة الحركة السياسية لقوى جديدة ، كانت نتاجاً لطبقات جديدة أحدثها التدخل الأجنبي في البنية الاجتماعية والفكرية في المجتمعات الإسلامية مثل الأحزاب والنقابات والنخبات النظامية والأرستقراطية والجماعات المصلحية المختلفة .. الخ . وقد اتسمت هذه القوى بحرية حركة غير عادية وبأدوات عصرية مكنتها من مجابهة السيطرة الأجنبية .

رابعاً : تبلور بشكل نهائي معنى الوطن والوطنية وكذا القومية ، ومنها ما تغلف بغلاف إسلامي ، ومنها ما برز مجرداً نقياً . وكان ذلك إيذاناً لبدء مرحلة جديدة من الجهد الشاق والمضني الذي بذله المثقفون في العالم الإسلامي من أجل البحث عن صيغ ائتلافية توفيقية بين الأفكار الثلاثة الوطنية والقومية والإسلام ، وإيذاناً كذلك بانتهاء الحديث الجاد عن الفكرة الإسلامية كرباط نظامي بين أجزاء العالم الإسلامي .

خامساً : لقد جاهدت الجيوش الإسلامية بجميع أشكالها التي قدمناها من أجل التحرر من الأجنبي ، وفي ظل زخم هذا الجهاد اختلطت مفاهيم الرغبة في التحرر " الوطني " أو " القومي " أو " الإسلامي " ، إلا أنه كان في النهاية تحرراً للكيانات الوطنية أو القومية أو الإسلامية من الأجنبي بممتلكاتها الحضارية والثقافية . ومن ضمنها الذات الحضارية للإسلام ومنطقه الثقافي الخاص ، ولكن تلك الذات تم حجبها خلف توجهات جديدة تمثلت في القومية والوطنية .